Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليها «الظافر الفاطمي»، جد في طلبه ليكتب له... ومن ذلك التاريخ بدأ نجم القاضي الفاضل يتألق في سماء الأدب والسياسة معاً، وبخاصة حينما تولى الأمر «أسد الدين شيركوه» الذي قربه إليه وجعله كاتبه الأثير، فلما توفي استخدمه صلاح الدين، وجعله وزيره وكاتبه ومشيره، فساس له الأمور سياسة رشيدة جعلته دائم الإشادة به، أثر عنه قوله في ملأ من الناس: (والله ما ملكت البلاد بسيوفكم، ولا بر ما حكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل)[1].

ولا عجب في ذلك، فقد كان ـ كما يقولون ـ هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحاكم في كلها، والمجهز لبعوثها[2]، لهذا لهج الشعراء بذكره، وأكثروا في مدحه، ذكر العماد الأصفهاني أنه مدح بمائة ألف بيت من الشعر[3].

هكذا كان القاضي الفاضل الساعد الأيمن لصلاح الدين، فلما توفي احتدم النزاع بين ولديه، العزيز والأفضل، وعبثا حاول التوفيق بينهما، فلما أخفق ورأى اضطراب الأمر، وتفريق الشمل، اعتزل السياسة، وعاش بعيداً عن بحرها المتلاطم، وإن ظل على وفائه (للعزيز) يتجلى ذلك في رثائه إياه بقصيدة حزينة مؤثرة.

رسائله:

تناول القاضي الفاضل برسائله مختلف الشؤون في الدولة، داخلية وخارجية، .. تناول رسائل الفتوح، ومخاطبة الملوك، واستنهاض الهمم ووصف المعارك والمعاقل، وغير ذلك مما يصور أحداث العصر، ويؤرخ للدولة في عهد صلاح الدين...، ولم تمنعه أعباؤه السياسية أن يجود ويتأنق تجويده في رسائله الخاصة؛ في الشوق والشكر والعتاب، وفي التهنئة والتعزية والإخاء، وهكذا

---

(١) مرآة الزمان ٨/٣٠٤، شذرات الذهب ٤/٣٢٧.

(٢) مسالك الأبصار [نسخة خطية] برقم ٢٥٦٨ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ٢٨٧ جـ ٧.

(٣) مراة الزمان ٨/٣٠٥